

نمو الأدب الأمريكي

[كتب هذا المقال لمجلة « الكاتب المصري » خاصة ، كتبه

الناقد الأمريكي الدكتور هنرى سايدل كانبي المولود سنة ١٨٧٨
وقد تعلم في جامعة ييل وحصل على درجة دكتور في الفلسفة ثم
دكتور في الآداب واشتغل بالتعليم وتولى تحرير عدد من المجلات
الأدبية الشهيرة ووضع أكثر من خمسة وعشرين مؤلفاً في النقد
الأدبي والتراجم وقواعد اللغة واشترك في الكتابة لتأثره
بالمعارف البريطانية] .

شهد العقدان الثالث والرابع من هذا القرن في الولايات المتحدة ، قوة
ونضجاً ظاهرين في الفن الأدبي ، لم يكونا نتيجة للعلات التي نزلت بالعالم في
جملته . ذلك أن الكتاب الأمريكيين ، وقد أحسوا بقوة القارة التي يستندون
إليها ، احتذوا في نضجهم ما فعل كتاب نيو إنجلند من قرن مضى . وكان أن فاقت
القصة الأمريكية في مهارة الصنعة الفنية أى خلق روائى كتب من قبل ، حتى
ما كتبه أساطين القرن التاسع عشر . وتناول أدب السخرية الأوجه الجديدة
للحياة الصناعية ، التي كانت الولايات المتحدة خير من يمثلها ، وكسبت فيها شهرة
دولية وداخلية . وبالرغم من بروتست في فرنسا وجويس في إيرلندة ،
وجالسورثي العظيم في إنجلترا ، أولئك الذين تشرب الكتاب المجددون أساليبهم
الفنية ، فإن الأدب الأمريكي من شعر وثر ومسرحيات بدا كأنما يسير نحو
ازدهار ، على حين بدت الآداب الأخرى كأنها تذوى وتزول ؛ وهذا ما شعر به
الأوربيون أيضاً . وبلغ الشغف بالقراءة بين الجمهور المتعلم في أمريكا مستوى لم
اجده قط إلا في دوائر محدودة من المثقفين ثقافة عليا في إنجلترا أو في القارة
الأوربية ، فكانت مرحلة نضوج وفترة نهضة تاريخية ازدهرت فيها المواهب
والأفكار التي كانت تنمو من زمن .

وحينما استولى على مقاليد الحياة الأدبية الجليل الجديد، الذي لم تفجأه الحرب العالمية الأولى مفاجأة بغيضة، بدا واضحاً أن الكتاب الشبان يحسون أنهم إنما يجتازون فترة انتقال. فترى أن الكتاب الذين برزوا حوالى سنة ١٩٢٠ مثل سكوت فيتر جerald من الروائيين، وروبنسون جفرسن من الشعراء، وشيروود أندرسون من كتاب القصة القصيرة، يوضحون لكل ذى بصر أن طريقة الحياة الأمريكية تعوزها الثقة.

ووصف سكوت فيتر جerald، وهو لا يزال طالباً بالجامعة، حياة الشباب الجديد من جيله وهم ينحرفون بعيداً عن مُثل آبائهم الأخلاقية. ويسيرون نحو نوع من الفوضى الفكرية. وأبرز روبنسون جفرسن، الشاعر الذى يصف الحياة فى زيف كاليفورنيا، ذلك الجانب من الاحتلال العصبى العجيب الذى كثيراً ما ظهر فى الآداب الأمريكية من قبل، كما يرى واضحاً فى هاوثورن وملشيل وپو. وهاجم شيروود أندرسون القصص، الأثر المميت لعصر الآلة بأمريكا فى حياة العواطف.

وقد تعدلت تماماً قيم العصر الفيكتورى الخلقية بالواقعية الجديدة للشبان الناشئين الذين تزعمهم همنجواى، فكان رد فعل عاطفى عارض حتى ما كان معدوداً لدى الكتاب الساخرين من القيم الثابتة التى دعمتها الخبرة.

ويرى همنجواى وجيله أن الحياة الأمريكية فى أسسها وفى ظواهرها حياة لا تطمئن. وهمنجواى أمريكى خالص، رغم اختلاله العصبى، وهو رقيق القلب فى عرضه للشقاء الفردى وإن يكن كالحیوان الذى يعرض جراحه، بدأ مذهباً للوحشية كأنه يعترم تحطيم تلك المثالية الأمريكية السهلة ليرى ما تخفى تحت سطحها. واستولت عليه تلك الحالة التى استولت على الشباب الأوروبى بما يسمونه إخفاق كل القيم المتوارثة؛ فقد نهج سبيل «ثورو» لاهتار، وأيد حقوق الفرد أمام الدولة.

وبينما نجد سنكلر لويس يهاجم المجتمع بأسره لجموده ولضيق أفقه، نجد همنجواى يملأ كتبه بأنواع من الشخصيات الانسانية الجديدة هم فى الاغلب فرديون لا اجتماعيون، رجال ونساء ممن تصدم تجاربهم القراء العاديين وإن كانوا بلا جدال صادقين نحو أنفسهم مثلما هم لأرون.

لقد ترعرع هؤلاء الكتاب الأمريكيون المحدثون فى أوقات الحرب ولم

يعرفوا قط عصر الاستقرار والثقة . ومهما تكن فلسفتهم الشخصية فقد بدأت تواجه موجة جارفة من الأحداث الخارجية اجتاحت أوروبا ناشرة ديانة جديدة خبيثة هي عبادة القوة . ورأوا في الداخل كيف تكاد عوامل التفكك والانحلال تطفو على السطح وتتخفز للانطلاق . وقد قرأ الجميع بعضاً من هذا الذي سمي أدباً عنيفاً ، ولكن الذين نفذوا إليه بوصفه ظاهرة خلقية قليلون . فكان أشد من احتجوا عليه الوعاظ والأخلاقيون المحترفون .

وهذه الكتب الجديدة التي ظهرت في العقد الرابع ، ابتكرت اصطلاحاً جديداً وأسلوباً جديداً ، وإن كانت كلمة أسلوب هي آخر ما ينطبق عليها . فإن القاعدة التي كانت سائدة حوالى سنة ١٨٩٠ وهى أن يكون القول جميلاً قد تغيرت فيما يبدو إلى العكس ، وأصبح التعبير كلمة جديدة في المعنى الذى استعمله توماس وولف ، وهو التعبير عن كل شيء . وقد أهمل هؤلاء الكتاب الشكل تماماً إلا في فن أمريكا الوطنى وهو فن القصة القصيرة . والحقيقة أن الروايات وعدداً قليلاً من المسرحيات الجيدة ، وسيل الشعر العادى فى أواخر العقد الثالث ، كانت تحمل كل علامات مرحلة جديدة لكتاب لا زالت أقلامهم مترجمة مضطربة ، ولم يسيطر خيالهم بعد على مادتهم الخصبية . هذا مع استثناء « ستيفن فنسنت بنيت » الذى وصل بالطور الثانى للأدب الأمريكى الذى يحتذى القديم إلى قته ونهايته فى قصيدته الطويلتين عن تاريخ أمريكا وهما « جسد جون براون » و « نجمة الغرب » . وآثاره هى وحدها التى تثبت أن فترة التحول بلغت نهايتها . ولم يؤثر كثيراً الصراع المذهبى السياسى الذى ساد العالم ، ومزق أوصال الأدب الأوروبى ، فى هذا الأدب الأمريكى الحديث . ولقد تبين خطر هذا النضال على أمريكا فى شعر الكتاب الأمريكين من أمثال بنيت الذين يتبعون الطريق القديم ، أكثر مما تبين لدى الكتاب الثائرين . ففى محاولتهم تصوير حياة أمريكا الدافقة شىء سليم ناشئ معنى بذاته . . . أزاح النضال المذهبى بعيداً لأنه لا يستحق التفكير فيه ولكن لأنه لا جدوى منه فى قطر لا زال يحفل بالتجارب لتحقيق فرص للجميع ، ولا زال على ثقة بمستقبل قوى زاهر . وكانت هذه هى السنوات التى شاهدت اتجاه كتاب أوروبيين ، بينهم كتاب من الانجليز ، فى شغف وتعطش نحو مسرح الحياة الأمريكية ، وإن كانت كتبهم

لم تتخط في أهميتها مجرد قيمتها الاخبارية عن أمريكا ، ولكنهم كانوا الفوج الأول للمهاجرين ممتازين كتوماس مان وهرمان بروك وفرايز ثرفل وعشرات غيرهم ممن هربوا قبل العاصفة على ألمانيا ، وغرسوا جذوراً جديدة في الولايات المتحدة وتابعوا بل قووا إنتاجهم الأدبي .

وذهب الملل بموجة قصيرة هبت من القصة العمالية وشعر الدعاية ، مما يحملنا على أن نحدد بأن الأدب الروسي الحديث سيئدى — حين يتحرر — نفس الخصائص ، وإن كنا نحن لا زلنا في مرحلة تحول متصل . وشهد العقدان الأخيران نهاية دورة ثقافية طويلة في أمريكا وبداءة دورة أخرى .
والآن قد يظن أن قواعد حياتنا لم يطرأ عليها إلا قليل من التغيير ، أقل مما كان مفترضاً في هذه المراحل الصاخبة .

لقد تكسرت موجة المستقبل بقسوة على صخور أوروبا وإن كانت لا تزال في عنف فورتها .

والقيم القديمة للحضارة الاغريقية المسيحية يبدو أن مصيرها البقاء ، مما يعنى أنها قد أثبتت صحتها ، وهو ما يراه بعضهم غريباً .
ولكن نطاق التجارب اتسع في أفقه وعنقه إلى الأبد . وتغير جو حياتنا الروحية والفكرية حولنا تغيراً حاسماً . وقد صار القانون الأساسى الذى يسيطر على تجاربنا واسعاً ليطبق على العالم الذى ظهر لنا على غير ما كنا نتوقعه منذ عشرين سنة فقط .

ولذلك فإن كتاباً كإمرسون وهوبتمان لا زالوا ينفذون بقوة إلى نفوسنا ، ولا زال كتاب هوبتمان « سنوات المحدثين » يبدو لنا جديداً يقرأ للآن كأنه كتب في زمننا ، وكذلك كتابه « رحلة الهند » .

ومن اليسير أن تفهم مقالات إمرسون الآن خيراً مما فهمت في عصرها ، على أنها مثالية عملية راسخة ، تعاني الهزيمة على الدوام ، ولكنها تهب دائماً متجددة ، في تاريخ الفكر والعمل الأمريكى .

والمسألة لا زالت كما صورها هوبتمان في كتاب رحلة الهند « ألم نبتذل أنفسنا هنا طويلاً نأكل ونشرب كالبهائم المجردة ؟ إذن فلتبحر بنا السفينة بعيداً ، ولتدر دفتك حيث المياه العميقة فقط ، فإننا نقصد أما كن لم يجرؤ بحار من قبل على أن يطأها بقدميه » .

لكن أمريكيو اليوم لهم أن يجيبوا أسألتهم القدامى قائلين « إن هذا وذاك أشياء لم تعرفوها ، وما كان في استطاعتكم أن تفهموها . وأن مبادئكم إذا لم تعدل فانها تطلق أو تواجه موجات من الأحداث ما كانت لتجول بخاطركم أتم وغيركم . ربما تنبأتم بما سوف تكون عليه الأمور ، ولكن هذه الأمور ذاتها : العلم الطبيعي والصناعة ، وطغيان الحرمان المسلح ، والسهولة التي يتغلب بها المجرم على البريء ، هذه أقطاب من الخير والشر تمتزج وهي كشياطين «ملتون» تحتاج إلى تعاليم جديدة لاستخدامها أو إخضاعها » .

ليس من مهمة الفن أن يمدنا بهذا الفقه الجديد ، ولكن الفن ، وخاصة الأدب ، يصلح تماماً لتسجيل ما يطرأ من تغيير . والكتب التي صدرت خلال ربع القرن هذا تحوى مجرد ظلال للحقيقة ولكنها تنبئ عن شروق الشمس .

ترجمة محمد عودة هنري مايرل لانج